المستر بكوك ورفاقه

للقصصى الانجليزى شارلز ديكنز

تمهيد :

كانت هذه القصة الفكهة المتعة أقوى وأسرع خطى شارلز دكنز إلى الشهرة والمجد ، ويعدها كثير من النقاد أحسن قصصه وأشدها اتصالا بفنه وعبقريته ، ذلك لأن روحه الفكهة ومقدرته الفائقة على الوصف ، ونشاط ذهنه ، تبرز كلها بأجلى وضوح فيها . وليست هذه قصة بالمعنى الحقيق ، وإنما هى تصوير بعض الشخصيات عن طريق الحكاية والحوار وما يتصل بتلك الشخصيات من معانى الحياة ومشاهدها . خلق القصصى العبقرى أولا شخصية مستر بكوك وجعله رئيساً لشعبة انتمى إلى ناد ، عملها التجوال لجمع ما عساه أن يصادفهم من معلومات ، ومن ثم بدأت سلسلة أسفارهم ومغامراتهم . وهذه القصة من القصص العالية التى لا تقل روعة عن قصة (دون كيشوت) لسرفانتس (المترجم)

الفصل الأول

رحلة اليوم الأول ومخاطرة الليلة الأولى

وما كانه من أمرهما

لم تكد تشرق الشمس وترسل أشعتها صبيح اليوم الثالث عشر من شهر مايو عام سبع وعشرين وثمانمائة وألف ، حتى نهض مستر (بكوك) من أحلامه كأنه شمس أخرى ، وفتح نافذة غرفته وأطل منها على الوجود من تحته ، وكان يقع شارع (جنيول) تحت عينه ، وكان يمتد شارع (جيول) عن يمينه إلى نهاية ما يصل إليه البصر ، وكان يمتد أيضاً عن يساره إلى مسافة بعيدة

شارلز دكنز

وحدث المستر (بكوك) نفسه قائلاً : « هكذا شأن تلك النظرات الضيقة ، نظرات هؤلاء الفلاسفة الذين يقتصرون مما يعرض لهم من الأشياء على مظاهرها ، ولا يبحثون عما يوجد وراء تلك المظاهر من حقائق الحياة . فهأنذا لا أقنع أبداً بالنظر إلى ذلك الشارع دون أن أبذل أى جهد فى تقصى ما يحيط بجوانبه من بلدان »

وفرغ مستر بكوك من تأملاته الجميلة ليضع نفسه فى ملابسه ، وليضع ما خلفه من ملابسه فى حقيبته . وإنك قلما تجد عظماء الرجال يظهرون كبير اهتمام أثناء ارتدائهم ملابسهم وتأهبهم

للخروج ؛ ومن أجل ذلك فسرعان ما فرغ مستر بكويك من حلق ذقنه وارتداء ملابسه واحتساء قهوته ، وخرج بعد هنيهة وحقيبته فى يده ، ومنظاره (تلسكوب) فى جيب معطفه ، ودفتره فى جيب صداره ، فكان على تمام الأهبة لأن يتلقى أى حادث يراه مستر بكويك جديراً بأن يدون ، وما هى إلا ساعة حتى كان مستر بكويك فى ساحة سان مارتن

وصاح مستر بكويك قائلاً : « عربة »

وتقدم اليه رجل مجيباً إياه : « أنا آتيك بما طلبت أيها السيد » ، وكان هذا الرجل غريب الشكل حقاً ، كان صنفاً عجيباً من أصناف الآدميين يرتدى معطفاً من الخيش عليه ميدعة من هذا القماش ويحيط بعنقه شريط من النحاس يحمل رقمه ، كما لو كان قطعة من الآثار النادرة رقمت لتوضع فى ثبتها . وكان هذا الرجل سقاء الخيل فى تلك الساحة فنادى قائلاً : « هيا ... العربة الأولى ... » واتجه الى مستر بكويك مخاطباً إياه : لك ما طلبت أيها السيد . وما كادت تتقدم العربة الأولى من ذلك الخان حيث دخن مستر بكويك غليونه الأول ، حتى قذف بنفسه وحقيبته فى جوفها ، وأمر الحوذى أن يذهب به الى « جولدن كرش » وأدار الحوذى رأسه الى صاحبه السقاء قائلا فى همس خفى : « ان ذلك لا يساوى أكثر من شلن يا توم »

وسأل المستر بكويك الحوذى ماسحاً أنفه بتلك القطعة من النقود التى أعدها ليدفعها أجر ركوبه : « كم عمر هذا الحصان يا صاحبى ؟ »

وأجاب الحوذى وهو ينظر الى مستر بكويك نظرة الدهش والحيرة : « عمره اثنتان وأربعون سنة »

وأسرع مستر بكوك الى دفتره متمتما : « ماذا » ؟ « ماذا تقول » ؟ وأنقص الرجل عدد السنين الذى فاه به أولاً ، ووجه مستر بكويك نظراته إلى الرجل ووجهه شديد التجهم ، وظلت ملامحه وهو يكتب على ما هى عليه من صرامة ، ولذلك أثبت فى دفتره تلك الحقيقة غير منقوصة

وأردف مستر بكويك متسائلاً كى يصل إلى غيرها من الحقائق والمعلومات « وما مقدار الوقت الذى يقتضيه فى العمل فى كل مرة تأتون به اليه؟»

فأجاب الرجل : « من أسبوعين الى ثلاثة »

وصاح مستر بكويك فى دهش : « أسابيع ! »

وسرعان ما برز دفتره ثانية من صدره

واستطرد الرجل فى فتور : « انا نرسله الى منزل فى حى بنتنول » فى غير فترة العمل ، ولكننا قلما نرسله الى مكان راحته بسبب ضعفه

وصاح مستر بكويك وقد ذهبت الحيرة بعقله كل مذهب : « بسبب ضعفه ! »

واستمر الحوذى يقول : « انه دائماً يسقط على الأرض كلما حل من العربة ، ولكننا اذا شددناه الى العربة بحكم ربطه ونقصر الحبال والسيور فلا يستطيع بذلك أن يسقط ، ولقد اتخذنا العجلات من حجم كبير ، ولذلك فهى تدفعه اذا ما تحرك ولا ندع له مجالاً للتوانى ، واذاً فلا بد له أن يتابع سيره ، اذ لا حيلة له فى ذلك »

وأثبت مستر بكويك عبارة الرجل بحذافيرها فى دفتره ، ليقدمها الى النادى شاهداً فذاً على القسوة فى دنيا الخيل . وما كاد ينتهى من كتابة ملاحظاته حتى وصلت العربة الى « جولدن كرش » ، فوثب الحوذى الى الأرض ونزل مستر بكويك ، والتف حول العربة كل من مستر توعان ومستر سندجراس ومستر وتكل وأخذوا يحيون رئيسهم الأعلى وكانوا ينتظرون مقدمه فى شوق

وخاطب مستر بكوك الحوذى قائلا : « هذا أجرك » ومد اليه يده بذلك « الشلن » الذى أعده

ولشد ما تعجب هذا الرجل المثقف العالم ، اذ رأى مثل ذلك الشخص الذى لا حساب له يلقى بقطعة النقود على أفريز الشارع ، ويطلب اليه ، الى مستر بكويك ! أن « يسمح له بشرف منازلته »

وبادره مستر سندجراس بقوله : « إنك ياهذا لمجنون »

وأردف مستر ونكل قائلا : « أو سكران »

وأيدهما مستر توعان بقوله : « أوالأمرين معا »

وراح الرجل يصيح : « هيا ... هيا ... أنا لكم جميعاً ... ستون ... هيا »

ورأى ذلك جماعة من الحوذية فصاح أحدهم : « هذا منظر ممتع » وتجمعوا حول الحوذى وخصومه

وتقدم أحد الناس فسأل « فيم هذه الضجة »؟

وأجاب الحوذى « نخة ! مشاجرة ! ... ماحاجته الى رقمى ؟ »

وأجاب مستر بكويك وقد أخذته الحيرة : « لم أك قط فى حاجة الى رقمك : »

وتساءل الحوذى : « إذن لماذا أخذته ؟ »

وأجاب مستر بكويك مغضباً : « لم آخذه ... لم يحصل »

واستأنف الحوذى كلامه ، متجهاً الى الجمهور موجهاً اليه الخطاب « هل يصدق أحد ؟ هل يصدق أحد ؟ ... مخبر يركب معى عربتى فلا يقتصر على أخذ رقمى فحسب ، بل يثبت كل لفظ نفهت به ! اذ ذاك لاح بصيص من النور لستر بكويك ... أنه دفتره الذى ...

وسأل أحد الحوذية : « هل فعل ذلك ؟ »

وأجاب الحوذى قائلا « نعم فعل ذلك ، وبعد أن يستثيرنى لمهاجمته يأتى هنا بثلاثة من رجاله يستشهدهم على ! ولكنى سأهاجمه مهما يكن من الأمر ... ولو كان من ورائها ستة أشهر . هيا »

واندفع الحوذى فلطم الستر بكويك لطمة أطارت منظاره عن عينيه ، وواصل الهجوم بحركة استقرت على أنف مستر بكويك ، وأردفها بأخرى وقعت على صدره ، ثم بثالثة نزلت على عين مستر سندجراس ، ورابعة من باب التنويع حلت ببطن مستر توعان ، وانطلق الرجل يعدو راقصاً نحو الشارع ، ثم عاد مسرعا إلى الأفريز ، وانتهى بأن أوقع الرعب فى قلب مستر ونكل فقطع عليه تنفسه وأفرغ جسمه مما نشقه من هواء ؛ كل ذلك فى ست ثوان فحسب !

وصاح مستر سند جراس ... « أين رجل الشرطة ؟ »

ورد بائع فطائر قائلاً : « ضموهم تحت المضخة »

ولهث مستر بكويك بقوله : « سوف تجازون أشد الجزاء »

وتصايح الناس بقولهم ... « مخبرون ... مخبرون »

واستأنف الحوذى تهديده صائحاً ... « هيا ... هيا ... » ، ولم ينقطع لحظة منذ أن بدأ المعركة من توعده وتوثبه

ولقد كان موقف الناس من تلك المشاجرة حتى ذلك الوقت موقفاً سلبياً ، فلم يكونوا سوى متفرجين ، ولكن ما كاد يذيع فيهم أن مستر بكويك ورفاقه مخبرون ، حتى أخذوا يحبذون فى حماس ونشاط تنفيذ ذلك الاقتراح الذى تزايدت حرارته حتى التهب ، ألا وهو اقتراح بائع الفطائر الساخنة ، وأرانى فى غنية عن أن أبين ما كان يرتكبه هؤلاء القوم من تعد على أشخاص تلك الجماعة ، لولا أن أوقف الشجار تدخل شخص جديد ، راح يتساءل : « ما هذا ؟ ماذا يطربكم ؟ »

وكان القادم شابا طويل القامة نحيف الجسم

يرتدى حلة خضراء ، ظهر فجأة فى تلك الساحة
ورد عليه الجمع قائلين : « هؤلاء مخبرون »
وأرعد مستر بكوك قائلاً « لسنا كما يدعون » ، وكان لقوله هذا نغمة مؤثرة حتى لتتخذ سبيلها إلى أى قلب لا يلين لعاطفة

أما هـذا القادم فقد شق بمرفقيه طريقاً له فى هذا الجمع ، وراح يتساءل موجهاً قوله إلى مستر بكوك : « لستم كما يقولون إذا ؟ » « لستم كما يقولون ؟ » وأوضح له ذلك الرجل المثقف حقيقة الأمر ، فتقدم وجذب مستر بكوك فى شبه قهر ليخرجه من زحمة الناس ، وانتهر الحوذى وصرفه عنه ، وسار إلى خان هناك يتبعه مستر بكوك ورفاقه ، وجلسوا يشربون ويطعمون

وبينما كان رفاق مستر بكوك يقدمون لذلك الشخص شكرانهم ، أخذ رئيسهم يلقى نظرات فاحصة على هندام الرجل ومظهره

كان طوله وسطا ولكن تحول جسمه وطول ساقيه جعلاه يبدو أطول مما كان ؛ وكانت حلته الخضراء ملبساً أنيقاً شائعاً فى أيام سالفة ، بيد أنها كانت كما يظهر فى جلاء تزين رجلاً أقصر قامة منه ، فأن ردنيها الخائلى اللون الملطخين لا يكادان يصلا الى رسغيه ، وقد أحكمت الأزرار سدها حتى العنق مما جعلها توشك أن تنقد من خلف ؛ ولم تك تتبين العين حول عنقه قميصاً ، إذ لم يك ثمة شىء سوى قطعة رثة من القماش تحلى جيده ، وكانت تتناثر هنا وهناك فى سرواله الأسود الضيق رقع واضحة تنهض دليلاً على قدم عهده . ولقد ربط هذا السروال ربطاً محكما فى نهاية ساقيه فوق حذائه البالى ليخفى جوربا أبيض قذراً ، تراءى للأعين على الرغم من ذلك ، وكان شعره الأسود ينساب فى خصل تتدلى على جانبى قبعته القديمة المتهدلة ، وكان وجهه مسروقاً هزيلاً ، ولكن حالا غريبة لا توصف من الرضاء وعدم المبالاة وضبط النفس كانت تغلب على صفات ذلك الرجل

ذلك هو الشخص الذى راح يحملق فيه مستر بكوك خلال منظاره وكان قد استعاده لحسن حظه ، ولما أن فرغ رفاقه من تحياتهم ، أخذ هو بدوره يتقدم اليه أحر شكره على ما كان من مساعدته ؛ ورد ذلك الشخص فى عبارات متقطعة : « دعك من هذا — كفى — لا تزد . . إنه ولد شقى ذلك الحوذى . . كان يحسن توجيه لكماته ... ولكنى لو كنت ...

وقطع عليه عباراته سائق العربة المسافرة إلى « ورشستر » إذ أعلن اليهم أن عربته على أهبة الرحيل ، ونهض ذلك الشخص واقفا واستأذن الجماعة قائلاً : « تلك عربتى ... احتجزت فيها مكانا أترك لكم دفع ثمن الشراب والماء ... أرانى فى حاجة الى صرف .. نفسة رديئة ... » ثم حياهم بهز رأسه تحية من يعرفهم حق المعرفة . واتفق أن كان مستر بكوك ورفاقه قد اعتزموا أن يجعلوا « ورشستر » محط رحالهم الأول فى سفرهم هذا ، فأخبروا الرجل بذلك ، ثم وافقوا على أن يتخذوا مقاعدهم فى مؤخر العربة حيث يستطيعون أن يجلسوا معاً جميعاً

وساروا الى العربة وأخذ الرجل بيد مستر بكوك فى غير مبالاة قائلاً : « هيا ... هيا ... اسعد » وقد أراد بذلك أن يقلل من أهمية هذا الرئيس ، وينال من وقاره وتحشمه بطريقة ملموسة . وسأل السائق الرجل : « هل من متاع أيها السيد ؟ »

— من ؟ أنا ؟ ليس سوى هذه الحزمة الملفوفة فى الورق البنى ، فقد أرسلت بطريق الماء متاعى الثقيل — صناديق كبيرة ثقيلة ... كالمنازل فى حجمها ... ثقيلة ، ثقيلة جداً :

وكان الرجل يدس تلك الحزمة فى جيبه وهو يجيب السائق ، وأكبر الظن أنها كانت تحتوى على قميص ومنديل

واستأنف الرجل عباراته حين اقتربت العربة من قوس أقيم على الطريق كان فى تلك الأيام بمثابة مدخل لساحة العربات قائلاً : — « الرؤوس ، الرؤوس ، خذوا حذركم هذا مكان مخيف ، عمل خطر ... ذات يوم ... خمسة أطفال ... أم ... سيدة طويلة القامة تأكل قطعة من الخبز ... نسيت القوس ... احتكاك صدمة .. بنظر الأطفال وراءهم ... رأس الأم قد طارت ... قطعة الخبز فى يدها ... لم يعد هناك فم يلتقمها ... رأس أسرة طارت ... مؤلم مؤلم ... أتراك تنظر الى « هويت هول » أيها السيد ؟ إيه أيها السيد ؟ أتراك تنظر اليه ؟ إيه ! أتراك . . . ؟

وأجاب مستر بكوك : « كلا إنما أفكر فى ذلك التقلب الذى يلازم أحوال الناس »

— « آه ... أفهم ما تريد ، أأنت فيلسوف أيها السيد ؟ »

— « أنا رجل أدرس وألاحظ الطبيعة البشرية عن كثب ياسيدى »

— « وأنا مثلك ، وإنك ترى معظم الناس كذلك ، حين لا يكون لديهم عمل ، وحيث لا ينتظرون كبير مغنم . أأنت شاعر أيها السيد ؟ »

— « لا وإنما تجد صديقى مستر سنذ جرامى قد امتاز بحاسة شاعرة »

— « وأنا مثله ... ملحمة طويلة ... عشرة آلاف سطر ... ثورة يوليو ... نظمت فى المكان نفسه ... مارس إلهه الحرب نهارا ... أبولو إلهه الغناء ليلا ... أعزف أنشودة الميدان وأغنى على القيثارة »

وتساءل مستر سنذ جرامى : — أشهدت ذلك المنظر الفخم أيها السيد ؟

— « نعم ... رأيته رأى العين ... أطلقت رصاصة ... ثم أطلقت فكرة ... اندفعت الى حانة خمر ... أثبتها ... عدت ثانية ... أزيز ... عزيف ... فكرة أخرى ... حانة الخمر ثانية ... قلم وحبر ... عدت ثانية ... طعن ... ضرب ... ساعة مشهورة يا سيدى » ثم اتجه الرجل بغتة الى مستر دنكل سائلاً أياه : « أأنت رجل صيد وطرد أيها السيد ؟ »

— « بعض هذا أيها السيد »

— « أن هذا الطرد أمر جميل ... هل لديك كلاب أيها السيد ؟ »

— « لا ... ليس لدى منها شىء بعد »

— « آه . ينبغى أن يكون لديك عدد من كلاب الصيد ... حيوانات ظريفة ... مخلوقات عاقلة ... ذات يوم كلبى ... اسمه بونتو ... غريزة مدهشة . خرجت للصيد يوماً ... خطوت لأجتاز سياجاً . أطلقت من فمى صفيراً ... الكلب لا يتحرك ... صفير ثانية ... بونتو لا يقدم ... واقف لا يتحرك هتفت به بونتو ! بونتو ! ... لا يريد أن يتحرك . واقف فى مكانه ينظر إلى لوحة .... رفعت بصرى فرأيت عبارة مخطوطة « لدى حراس الصيد أوامر أن يطلقوا النار على أى كلب يجتاز السياج » ، لم يشأ أن يجتازه ... كلب مدهش .... كلب ثمين حقاً كلبى هذا ... » ، وتكلم مستر بكوك قائلاً : « هذا شاهد عجيب ، هل تأذن لى أن أسجل هذا مذكرة عنه ؟ »

— « أسمح ولا ريب ... لا ريب أيها السيد .. مائة قصة عن هذا الحيوان إذا شئت »

(يتبع) (عائد)